غلطة
بقلم عثمان الجديد

قصة غلطة

بقلم: عثمان الجديد

الجزء 1 الى الجزء 10

لمحتُها وسط ضجيج الحانة، تجلس على كرسيٍ مهترئٍ بين طاولات مكتظّة بالغرباء، ووحدتها تحاصرها كما يحاصر الليل المدن المنسية. حولها زجاجات فارغة تُعلن عن هزائم متكرّرة، ورماد سجائر متناثر يخبرك بأن الحرب بداخلها لم تهدأ بعد. وجهها... وجهٌ أكلَ الزمانُ ملامحه، وعينان متعبتان تحاولان التشبّث بالحياة رغم انسحابها البطيء.

كل ندبةٍ على جبينها كانت سيرة، وكل هالةٍ سوداء تحيط بعينيها كانت فصلاً من ليالٍ سوداء مرّت عليها، عارية من الرحمة، ثقيلة بالحزن، شبيهة بليل بلا نجوم.

كانت تجلس هناك، ولا تجلس... كان جسدها في الحانة، أما عقلها، فقد غاص في دوّامة أفكارٍ متشابكة، تصفعها الذكرى تلو الأخرى. وفجأة، انخفض صوت موسيقى "الشعبي" التي كانت تصدح من آلة قديمة في زاوية المكان، ليرتفع صوت الشاب رزقي يغني بصوته المكسور:

"أنا الغلطان... ماشي نتي"...

اهتزّ شيء ما في داخلها. الأغنية التي سمعَتها آلاف المرات، تلك التي كانت مجرّد لحن، أصبحت الآن نصلًا يشق قلبها. عادت بها الذاكرة إلى زمنٍ سحيق... إلى طفولتها النقية، إلى ضحكتها الأولى، حين كانت تشغّل نفس الأغنية على جهاز MP3قديم جلبه لها عمّها من الديار الاسبانية، فكان كنزها في عالم بسيط لا يملك شيئًا.

كانت حينها طفلةً يملأها الأمل، لا تعرف عن الحياة سوى ما تمنحه الطبيعة من ضوء، وعن الحب سوى ما ترويه الحكايات. وُلدت في قرية صغيرة على هامش نواحي غرب المغرب، حيث لا شيء سوى ترابٍ صافٍ، وقلوبٍ طيّبة، وجدرانٍ تحفظ حرارة العائلة.

كبرت وسط أسرة فقيرة، لكن الفقر لم يكن مرئياً؛ فالكل في القرية يعيشون نفس البساطة، يضحكون من القلب، ويحلمون بصوتٍ عالٍ رغم ضيق اليد. حلمها الكبير؟ أن تزور المدينة. مدينة الأضواء، والعمارات التي تلمس السماء، والمقاهي التي تراها في الإعلانات. كانت تريد أن تعرف ما وراء "الفيلاج"، أن ترى "الآخر"، أن تكون شيئًا أكبر من مجرد بنت قروية.

في طريقها إلى الثانوية، ترتدي وزرتها البيضاء وتحمل دفترًا صغيرًا فيه أغاني من تحب، كانت تمشي بمحاذاة الشارع الوحيد في قريتها، والطريق إليها كان شاسعًا... شاسعًا كفاية ليحمل كل أحلامها الصغيرة. كانت تظن أن الحياة تنتظرها بأذرعٍ مفتوحة، وأن الحب نهر سيغسل كل تعب، وأن المدينة ستحبها كما أحبّتها هي.

لكنها لم تعلم، أن قلبها نفسه سيكون سبب نهايتها.

الحلم تحوّل إلى كابوس.

الضوء تحوّل إلى جمر.

والحب... كان مجرّد قناع.

حادثةٌ واحدة، اختطفت منها كل شيء. حادثة طمست نور عينيها، وجرّفت طفولتها كما تجرف السيول تراب الأرض.

لم تعد بعدها تلك الفتاة.

تحوّلت.

تحوّلت من طفلة حالمة،

إلى امرأة ثلاثينية،

تجلس في زاوية معتمة من حانة رطبة في أحد أزقة الدار البيضاء،

ترتشف جعة النسيان،

وتحترق كلّ مساء.

"إن أزهرت وردة في الظلام، هل تثق بأنها أزهرت حقًا؟

أم أنها فقط ظنت نفسها زهرة، ونسيت أنها نبتت فوق مقبرة؟"

أنا فقط رأيتها. لم يكن في الحانة أحد يراها كما رأيتها.

كانوا يرون جسدًا نحيلًا، فستانًا داكنًا، كأسًا شبه فارغ.

أما أنا، فرأيت سؤالًا يمشي على قدمين.

تساءَلت، بين فترات الصمت التي تملأ زوايا الحانة، وبين ضحكات باهتة تُسمع ولا تُشعر.

كأن الليل يخفي في ظلامه صرخات لا أحد يريد سماعها.

كأن كل زهرة تُولد هنا، تُدان لأنها ولدت في المكان الخطأ.

رأيتها تعطي آخر سيجارة لديها لنادلة جديدة.

ثم أشاحت بوجهها، كأنها خجلت من كونها لا زالت طيبة.

كانت تتساءل:

هل تستحق الزهرة أن تُحرق فقط لأنها نبتت في بيئة ملوثة؟

هل يجب على الأرواح النقية أن تتسخ كي تعيش؟

لماذا صار النقاء مرادفًا للسذاجة، والنية الطيبة مرادفة للغباء؟

لماذا كلما حاولت أن تُحب بصدق، صارت فريسة سهلة لمن يعرف كيف ينهش القلوب بثقة وابتسامة؟

كانت الأسئلة كثيرة، صاخبة كالدخان المتصاعد من سيجارة قديمة، تمتد لتغطي كل الذكريات.

وأنا، وسط الزحام، فهمت كل شيء.

وكرهت كم أنني وصلت متأخرًا.

الصباح...

آه، الصباح.

في طفولتها، كان الصباح مرآة السماء داخلها.

كانت تنتظر الشمس كي تلمس وجنتيها كأنها لمسة أمٍ فقدتها.

كان الحقل ينتظرها، وكانت الندى كأنها قطرات حنان من الكون.

تصعد السطح خفية، ترتبك، لكنها لا تخاف. كانت تأمل أن تعود يومًا، بنفسها، لكن أقوى، تحمل بين يديها حياة جديدة، ابنها الذي وعدت نفسها به، لتهبه حبًا لم تحصل عليه أبدًا.

لم أسمعها تتحدث عن طفولتها كثيرًا، لكن كانت تذكر "الندى" وكأنه صلاة.

كأنها خُلقت لتعيش في الضوء... لا هنا.

لكن تلك البنت الصغيرة، ذات الجسد النحيل والعيون المستيقظة، لم تعد.

حلّت مكانها امرأة لا زالت ترتعش في عمقها، رغم جفاف ملامحها.

امرأة سُرقت منها الأحلام تحت شعار "النضج."

امرأة صار جسدها شاهداً على معارك لم يخبرها أحد كيف تُخاض.

تتذكر كيف كانت تدرس في الثانوية، على بُعد ساعة من بيتها، ورغم التعب، كانت تعود لتطبخ، تساعد، تبتسم، دون أن يسألها أحد عن يومها.

أبواها؟ لم يعرفا الحب، ولا التقاط النظرات المكسورة.

رفاقها؟ أغلبهم ذكور. الفتيات كنّ يُزوجن في سنٍ مبكر، وكان الحُلم أن تصير "عروسة"، لا "امرأة حرة."

الآن، وهي في مكانها، على بعد ساعات من الشروق، تكره مجيء الصباح.

الصباح صار دليلًا على أن الحياة مستمرة، رغم أنها لم تعد قادرة على المتابعة.

تتمنى لو يتوقف الزمن، فقط لحظة...

لحظة واحدة دون صوت، دون فكرة، دون وجع.

ظهرها يؤلمها... ليس من الجلوس، بل من الحِمل.

ذلك النوع من الألم الذي لا يُعالج، لأنه لا يأتي من العظم، بل من الذاكرة.

كل شخص لم تستطع نسيانه، ساكن هناك.

كل وداع غير مكتمل، كل خذلان، كل نظرة احتقار، كل نظرة شفقة.

شاهدتها تمرر يدها على رقبتها، ببطء، كأنها تحاول أن تمسح ذكرى خنقتها هناك.

رجل من الزبائن لمس ظهر نادلة، فتوترت ملامحها فجأة.

كأنّ يدًا من الماضي عادت تعبث بها مجددًا.

تكره عملها... رغم أنه ليس "شنيعًا."

تكره كيف يتحول الإنسان لآلة في إدارة لا تعترف بالإنسان أصلًا.

تكره تلك اللحظات التي تضطر فيها للابتسام لمدير تكرهه، أو مجاراة زملاء لا يشبهونها في شيء.

تكره الشعور باللا جدوى. بالفراغ.

وفي هذا الفراغ، تسلّل صوته...

هو، الرجل الذي دخل حياتها مصادفة،

أو هكذا ظنت.

كان مختلفًا. أو جعلها تظن ذلك.

ضحكته فيها شيء من الطفولة، صوته فيه دفء لم تعتده.

ولأول مرة منذ زمن، شعرت أنها مرئية. أن هناك من ينظر في عينيها، لا جسدها.

كان يُصغي، يتحدث عن الحياة، عن الفن، عن الحزن.

قال لها مرة:

"أنتِ مثل شجرة زيتون نبتت في رمال متحركة... عنيدة، رغم كل شيء.

كلماته كانت كالمرهم...

لكنها لم تكن تعلم أن خلف الدفء، كان هناك جليد ينتظر أن يذيبها.

كانت عطشى، واعتقدت أنه الماء.

لم تدرك أنه سرابٌ آخر... بل كان أشد العطش.

بدأت تُصدّق أنه مختلف، وأنه ليس كالباقين.

لكنها لم تكن تعلم...

أن بعض الذئاب لا تعوي، بل تعزف موسيقى ناعمة.

وأن القلب حين يجوع للحب، يلتهم حتى السمّ إن قُدم له في كأسٍ من الحنان.

السيجارة انطفأت منذ دقائق، لكنها لم ترمِها.

جلست على نفس الكرسي، كأنها تخشى أن تنهض

فحين تنهض، تبدأ الهزيمة.

الساعة تقترب من السادسة صباحًا,

والحانة بدأت تفرغ من ضجيجها،

كأن الليل يلفظ آخر أنفاسه،

وكأن الأرواح التائهة تبحث عن مأوى، مؤقت... أو دائم.

قامت متثاقلة،

الدوار يراودها، النوم يغازل جفنيها،

لكنها تعرف أن النوم ليس ملاذها،

بل سجن جديد في عقلها.

خرجت من الحانة،

استقبلتها شوارع الدار البيضاء برائحتها الخاصة...
مزيج من البنزين، واليأس.

تمشي وسط الأزقة،
صوت خطواتها يرافقها كما لو أنه يواسيها،
والحياة تبدأ من جديد على الرصيف الآخر،
لكنها... ما زالت عالقة في ليلها.
لا زالت في الحانة، الكأس الأخير باردٌ بين يديها،
السيجارة انطفأت منذ دقائق، لكنها لم ترمِها.
جلست على نفس الكرسي، كأنها تخشى أن تنهض
فحين تنهض، تبدأ الهزيمة.
الساعة تقترب من السادسة صباحًا,
والحانة بدأت تفرغ من ضجيجها،
كأن الليل يلفظ آخر أنفاسه،
وكأن الأرواح التائهة تبحث عن مأوى، مؤقت... أو دائم.
قامت متثاقلة،
الدوار يراودها، النوم يغازل جفنيها،
لكنها تعرف أن النوم ليس ملاذها،
بل سجن جديد في عقلها.

خرجت من الحانة،
استقبلتها شوارع الدار البيضاء برائحتها الخاصة...
مزيج من البنزين، واليأس.

تمشي وسط الأزقة،
صوت خطواتها يرافقها كما لو أنه يواسيها،
والحياة تبدأ من جديد على الرصيف الآخر،
لكنها... ما زالت عالقة في ليلها.

قدماها تجرّان بعضها، وثقل الليل على كتفيها،

والشوارع الصامتة تتنفس تعبها.

المدينة غافية، لكن الإنارة الصفراء تفضح حزن العائدين وحدهم.

كانت شوارع الدار البيضاء في تلك الساعة تبدو وكأنها تشفق عليها،

الكلاب الضالة تنبح على ظلّها،

رجل نائم على الرصيف يشخر بأحلامٍ محطّمة،

وعينيها تجولان بين الوجوه، تبحث عن شيء...

شيء يشبهها،

شيء يبرر أنها لم تمت بعد.

في الزقاق الضيّق قبل الوصول إلى الحي الشعبي،

لمحت طفلة تمسك بيد أمّها، نائمة وهي واقفة.

تذكّرت نفسها،

تذكّرت كيف كانت تنام واقفة في الحافلة، في الصباح الباكر نحو الثانوية،

والكتب بين يديها كأنها دروع وهمية ضد هذا العالم القاسي.

الشارع الذي لطالما خافت منه...

صار الآن رفيقها،

يمشي بجانبها ويسألها:

"ألن تنامي الليلة؟"

فترد هامسة:

"النوم للذين لا يحملون أشياءً ثقيلة في صدورهم."

وصلت إلى شقتها الصغيرة بصعوبة.

أشعلت سيجارة أخيرة،

وخلعت حذاءها كما لو أنها تخلع خطيئة،

وجلست على الأرض...

السرير صار بعيداً، النوم صار خيانة.

في قلب الليل، وسط الدخان المتصاعد والستائر المغلقة،

سمعت صوتًا في ذاكرتها،

صوت ضحكة شاب كان يسرق النوم من عينيها قديماً...

نعم، تذكّرته.

تذكّرت كل شيء.

لم يكن منبّهًا، بل كان إعلانًا شعبيًا لبداية يوم جديد في القرية،

وبين صرير الباب الخشبي القديم، وصوت أمّها وهي تدعوها للقيام،

فتحت عينيها على سقف من خشب متآكل،

وكان الضوء الباهت يتسلّل من النافذة الصغيرة ذات الزجاج المتشقق،

يمسح وجهها بلمسة خجولة، كأنه يقبّلها قبل أن تنهض إلى عالمها.

جلست في سريرها النحيل المصنوع من الحديد البارد،

غطّت قدميها بالبطانية الصوفية التي ورثتها عن

خالتها،

غطاؤها المهترئ لم يعد يقيها البرد،

لكنها اعتادت أن تسحب دفء أحلامها بدلاً منه.

وشعرت ببرد الصباح يتسلل إلى عظامها،

لكن شيئًا ما في صدرها كان دافئًا،

ربما هو حلمٌ رأته ليلة أمس، أو كلمة كتبتها في دفترها السري عن "الغد".

نهضت بهدوء كي لا توقظ إخوتها،

توضأت بماء بارد،

غسلت وجهها في الحوض الحديدي خارج الغرفة،

تنفّست الهواء المبلّل بالندى،

ووقفت لبرهة تنظر إلى السماء الرمادية،

كأنها تسألها:

"هل سيكون هذا اليوم مختلفًا؟ هل سيحدث شيء يستحق أن يُكتب؟"

تأملت وجهها في المرآة المكسورة

المعلقة فوق المغسلة

رأت عيونًا تلمع بشيء ما، شيء يشبه الأمل أو الفضول.

كانت تلك بداية يومها،

روتينها البسيط،

لكنها كانت تحب تلك اللحظات الأولى قبل أن يستيقظ الجميع،

لحظات الانتماء الصامت بينها وبين الكون.

لبست وزرتها البيضاء المكوية بعناية،

مشطت شعرها بسرعة وربطته كما كانت أمها تفعل حين كانت صغيرة،

ثم تناولت قطعة خبز باردة غمستها في زيت الزيتون،

وأخذت كيس كتبها على ظهرها.

كان ثقيلاً، لكنه لم يثقل خطواتها...

بل كان يرفعها كأنها تطير نحو شيء لم تعرفه بعد.

خرجت من البيت والهواء البارد يعانق وجهها،

مرّت من بين الحقول النائمة،

الندى يبلل حذاءها، والطريق ممتدة أمامها كأملٍ بريء.

كانت تمشي وحيدة،

لكن في صدرها ضجيج...

ضجيج الأغاني التي تحفظها عن ظهر قلب،

وأصوات البنات في المدرسة وهن يحكين عن مدنٍ لم ترها بعد.

في تلك المسافة الطويلة نحو الثانوية،

كانت تحلم،

تحلم بكل شيء...

أن تكبر، أن تصبح شيئًا، أن تحب، أن تُحَب.

كانت تؤمن أن المدينة تخبئ لها شيئًا مختلفًا،
أن هناك من سيأتي يومًا ويراها كما هي،
كما لم يرها أحد.
وصلت إلى باب الثانوية بعد ساعة من المشي،
وجبينها يتصبب عرقًا رغم البرد.
سلمت على البواب بخجل،
ودخلت القسم الذي كان مزدحمًا بالصخب والأحاديث.

جلست في مكانها قرب النافذة،
وأخرجت دفترها...
لكنها لم تستطع التركيز.
هناك، في الزاوية المقابلة،
جلس هو.

كان أول يوم تراه فيه،
شعره منكوش بطريقة غير مهندسة لكنها ساحرة،
وعيناه كأنهما تعرفان شيئًا لا يعرفه الباقون.
لم يكن وسيماً بالمعنى التقليدي،
لكنه كان يملك شيئًا يجعل القلب يضطرب.

كانت تحاول أن لا تحدق به،
لكنها فشلت.

في أول استراحة،
كان يقرأ رواية قديمة فقدت غلافها.
اقتربت منه لتسأل عن اسمها،
لكنه ابتسم وقال:
"إنها لا تحتاج اسماً... القصص الحقيقية لا تُعنون."

ضرب قلبها بقوة،
وشعرت بوجنتيها تحترقان.

عاد كل شيء بعد تلك اللحظة مختلفًا،
صوت الجرس، صدى الأساتذة، رائحة القسم،
حتى اسمها حين ينادونها، صار يبدو أجمل.

لم تكن تعرف بعد،
أن تلك النظرة، تلك الكلمات القليلة،
ستحفر في ذاكرتها للأبد.
ستكبر معها، تؤلمها،
وتعيدها دومًا إلى ذلك الصباح،
حين استيقظت فتاة...
وغفت مساءً امرأة مجروحة.

في ذلك الصباح، حين لامست أولى خيوط الشمس نافذة غرفتها المتهالكة، بدا النور كأنه يعتذر عن زيارته... كأن الضوء نفسه خجل من الدخول على قلب منكسر، روح مرهقة، وامرأة نسيت طعم الأحلام.

استفاقت وهي لا تعرف إن كانت غفوت حقاً أم فقط أغمضت عينيها هرباً. لا شيء في الجسد يوحي بالنوم، لكن العينين متعبتان كأنهما حملتا الجبال، والروح... آه، الروح كانت كأنها قضت الليل تصرخ في صمت.

غسلت وجهها بماء بارد كالواقع، ثم وقفت للحظة أمام مرآتها كانت واقفة أمام المرآة، لا لتتزين، بل لتقنع نفسها بأنها لا تزال تملك ملامحها. لم تكن تلك خدودها، ولا تلك عيناها. شيء ما تغير، انكسر، انطفأ دون أن تعي متى بالضبط. كانت تمرر الفرشاة على وجهها كمن يمحو أثار معركة طويلة. قليل من كريم الأساس هنا، لمسة من البودرة هناك، وكأنها ترمم وجعًا لا يُرى، وتخفي ألمًا لا يُقال.
وضعت أحمر الشفاه بحذر، كما لو أنها ترسم ابتسامة ليست لها. تلك ليست زينة، بل قناع يومي، ترتديه كل صباح قبل أن تخرج للعالم. كانت تفكر: كم من امرأة تضع الماكياج لتبدو جميلة؟ وكم من امرأة تضعه لتخفي حزنها؟ لم تكن تحب الزينة، لكنها كانت تخشى أن يرى أحد ما خلف طبقات الألوان .

ارتدت ملابسها الرسمية للعمل كما يرتدي الجندي درعه، لا حباً في الحرب، بل خوفاً من الانكشاف. أمسكت بمحفظتها الجلدية التي بدأت تتمزق من الأطراف، تماماً مثلها، وخرجت نحو يوم جديد يشبه كل البارحة.

في الطريق إلى العمل، كان الناس يعبرون الشوارع بأعين شاردة، يركضون للحاق بحياتهم، أما هي، فكانت تمشي كمن يجرّ نعش حلمه خلفه. كانت الدار البيضاء في صباحها الصاخب كأنها تتنفس بصعوبة، والضجيج حولها يزيد من وحدتها.
وصلت إلى الإدارة التي تعمل فيها، لم تكن وظيفة مُهينة، لكنها كانت كأنها قيد حول معصم روحها. كانت تفعل ما يُطلب منها، تجلس أمام الحاسوب، تبتسم للغرباء، تصنع مجاملات باردة، بينما في الداخل، كانت تنهار بصمت.

وفي لحظة شرود، خلال رتابة اليوم، مرّت صورة في ذهنها... هو. ذلك الفتى الذي كانت تراه صباحاً في الثانوية، يحمل رواية لا تحمل عنواناً، ويبتسم كأنه يعرف النهاية قبل البداية. تذكّرت يومها حين سألته عن الرواية، تذكرت ارتباكها، احمرار وجهها، تلك الارتعاشة الطفولية في أطرافها.

كان أول من قال لها:
"كتعجبيني ملي كتكوني ساكتة"...

تذكرت كيف بدأ كل شيء، قبل سنوات طويلة، عندما كانت لا تزال في الثانوية، شابة يملؤها القلق والخجل. ذلك الصباح، استيقظت باكرًا، كعادتها، وساعدت أمها في تحضير الشاي وقطع الخبز. لم يكن في البيت متسع للفرح، لكن كانت تؤمن أن الخارج قد يمنحها بعضه. لبست جلبابًا بسيطًا، وشدت شعرها في ذيل حصان، ثم خرجت إلى الطريق الترابي المؤدي إلى الحافلة.
كانت الطريق موحلة، والبرد يتسرب إلى أطرافها، لكنها لم تهتم. كانت تحب المدرسة رغم كل شيء، تحب الكتب، وتحب تلك اللحظات التي تنسى فيها واقعها بين دفتي رواية أو صفحة شعر. في الحافلة، جلست قرب النافذة، تراقب الضباب يتناثر على الزجاج، وتتنفس بعمق. كانت تشعر بشيء مختلف في صدرها، وكأن يومًا جديدًا يحمل مفترقًا لا تدري ماهيته.

حين وصلت إلى الثانوية، مرّت بسرعة نحو القسم، متجنبة الأعين. لم تكن محبوبة، ولم تكن مكروهة. كانت ببساطة فتاة غير مرئية، تمر بين الجموع دون أن يلاحظها أحد. حتى ذلك اليوم.

جلس إلى جانبها في حصة اللغة العربية. لم يكن هناك مكان آخر، فاختار المقعد الفارغ بجانبها دون كثير تفكير. لم يكن يشبه البقية. كان طويلًا قليلاً، له عيون داكنة فيها شيء من الحزن والهدوء. في البداية لم يتحدث، لكنه ابتسم عندما سقط قلمها من الطاولة وقال:
"هاك... راه ستيلوك طاح، ماشي قلبك".
ابتسمت، ثم نظرت إلى الأرض حتى لا يرى احمرار وجهها.

مرّت الأيام، وبدأ يتحدث معها أكثر. كان يُبدي إعجابه بطريقة تفكيرها، ويمازحها بلطافة. وفي مرة، قال لها بعد أن أنهيا عرضًا شفهيًا مشتركًا:
"عارفة؟ ما كنتش كنفكر نلقا شي حد فهاد المدرسة اللي يفهمني"

كانت تلك الجملة كافية لتشعل قلبها لأسابيع. بدأت تنتظر رؤيته كل صباح، تعد الأيام، وتحفظ نبرات صوته، تفرح إذا تبادل معها الحديث، وتحزن إن مرّ بجانبها دون أن يراها. لم يكن يشبهها... كان ابن المدينة، يعرف كيف يتحدث وكيف يضحك في وجه الحياة، يتنقل بين الكلمات بخفة، ويُلقي العبارات كما تُرمى النُكت في المقاهي. كان عفويًا، لا يقصد الأذى، لكنه لم يدرك أبدًا أنها كانت هشة، تتلقف كل كلمة منه كأنها وعد، وكل نظرة كأنها اعتراف، وكل ضحكة كأنها حب. لم يكن يعرف أنها كانت تقع... ببطء، بصدق، وبكل ما فيها. في بيتها، لم تكن تجرؤ على الحديث عنه. لم تكن عائلتها من النوع الذي يُشجع على الحب أو حتى الاعتراف بالمشاعر. كانت تحفظ كل شيء في قلبها، وتخفيه بين صفحات دفاترها، وتكتب اسمه بالحبر الخفيف على الهامش.
وفي لحظة سهو في العمل هذا الصباح، عاد كل شيء.

عادت تلك النظرة الأولى، تلك الضحكة، تلك الجملة العابرة التي سكنت قلبها سنوات. عادت خيبات ما بعده، ولكن الأهم... عاد الإحساس بأنها، ولو للحظة، كانت محبوبة رغم تبين الحقيقة لمرة بعدها كيف لنا أن ننسى من يوما ما رسم الابتسامة في وجوهنا رغم انه محى كل السعادة من روحنا بعد ذلك; بين هاته و تلك نبقى في حيرة .

اغمضت عينيها و تمنت ان يتوقف الضجيج .... كل الضجيج، وقالت لنفسها بصوت منخفض:
"صافي... براكة عييت".
يتبع...

قالتها بهمسة بالكاد تسمع، وأغلقت عينيها على مكتب العمل، كأنها تطلب هدنة صغيرة من العالم. لم يكن النوم، بل شيء يشبه الاستسلام الهادئ، حيث يصبح التفكير ألماً إضافيًا. أغلقت عينيها فوق مكتب العمل المتعب، حيث تصطف الملفات مثل قبور صامتة، وحيث لا صوت يُسمع سوى حركة التكييف، ورنين الحياة التي تحدث بعيدًا عنها.

كانت تُجيد الهرب داخل عقلها.
تعرف أن هناك كسرًا قديمًا لم يلتئم.
تعرف أنها مرّت بسنوات كافية لتتعلم "تجاوز الأمور"، لكن قلبها رفض أن يتعلم.

مرت سنوات، تغيرت فيها تسريحاتها، عطورها، ملامح وجهها، حتى نبرة صوتها صارت أكثر هدوءًا وأقل اندفاعًا...
لكن شيئًا واحدًا لم يتغيّر:
ذلك الشعور الذي يزورك كل صباح، وأنت تنظر في المرآة، وتقول في سرّك: "ماشي أنا، ماشي هادي حياتي".

كانت تعرف. تعرف أنها ليست بخير، وتعرف أن شيئًا في داخلها انكسر منذ زمن، ولم تجد الطريقة لترميمه. لم تخدع نفسها بوهم النسيان، كانت تواجه نفسها في كل مرآة، كل صباح، وتدرك كم هو ثقيل أن تستيقظ بنفس القلب المكسور الذي نام البارحة.
الهاتف رن. ترددت قبل أن تنظر.
"ماما"
الاسم وحده في الشاشة، كان كافياً ليعيد لها التعب الذي حاولت طرده.

سحبت نفسًا، وضغطت على الزر.
- "آلو".
- "بنتي، آش خبارك؟"
- "لاباس".
- "شوفي... ما نكذبش عليك، راه خصنا الفلوس. خوك مريض، وكاينين المصاريف".
- "عارفة ماما، غير مازال ما دخلش الصالير".
- "صالير؟ آش من صالير؟ نتي غير خدامة باش تبقاي عايشة، ماشي باش تعاوني داركم. آش فدّيتي؟ الراجل ما قدّيتيش عليه، حتى خدمتك مافيها ما يتشاف"...
- "صافي ماما، غير ما تزيديش"...
- "ما تزيديش؟ راه نتي اللي خاصك ديري حسابك، راه الوقت ما كيرحمش. نتي ما درتي والو فهذ الحياة".

- "أنا كنقول الحق. نتي ما درتي والو فهذ الدنيا، وهادي هي النتيجة".

ـ "صافي، عندي خدمة دابا، نعاود نهضر معاك من بعد".

انتهت المكالمة، وبقي الهاتف في يدها مثل جرح طري.
حين كانت في الخامسة عشرة، كانت تحلم بأن تشتري لوالدتها منزلًا في المدينة، تطبخ لها فيه فطائر الأحد، وتضحك معها كالأفلام العائلية السعيدة.

لكن في الحقيقة، لم تتلقَّ منها يومًا حضنًا. كانت أمها تنظر إليها كشيء لم ينجح. لم ترَ فيها الطفلة، بل المشروع الذي فشل.

لم تبكِ. لم تكن تملك هذا الرفاه.
قامت ببطء، دخلت مرحاض الشركة، وغسلت وجهها بالماء البارد، ثم نظرت في المرآة.
الفتاة في المقابل... كانت امرأة.
أكبر من سنها.
حزينة من الداخل، رغم أحمر الشفاه الذي حاولت أن تُخفي به التعب.
تعرف أنها كبرت قبل وقتها.
تعرف أن "الأمومة" التي عرفتها، لم تكن حناناً.
كانت ضغطًا، توقعًا، ونقدًا لا يتوقف.

عادت إلى مكتبها، جلست بلا حراك.
كأن روحها خرجت منها قليلاً.

الآن، بعد سنوات...
هي في مدينة لا تنام، وسط مكاتب باردة، ووجوه مجهولة، ووحدة أليفة.

ومع ذلك، شيء في داخلها لا يزال يؤمن بأن الحب، ذلك الحب، لم يكن عابرًا.
لم يكن مجرّد تجربة.

كان شيئًا يخصّها، فقط هي.
لكن الأيام تتقدّم، والماضي يبتعد.
وكلما حاولت أن تفتح قلبها لغيره، وجدت نفسها تحبس المقارنة، تغلق الباب، وتعود إلى مقعدها الخالي في القلب.

رغم ان الخطأ خطأها، ما من شكّ في ذلك. لم تُجبرها الحياة على شيء، بل هي من اختارت — باندفاع قلبٍ ساذج، وبقصر نظرٍ مؤلم — أن تسلك الطرق الملتوية، أن تثق في من لا يستحق، وأن تلوّن الحكايات الرمادية بألوان وهمية. كانت تعرف، في قرارة نفسها، أن بعض الأبواب لا تُفتح إلا على حزنٍ مقيم، ومع ذلك طرقتها، وابتسمت عند العتبة. كانت قراراتها، واحدة تلو الأخرى، تنسج لها قيدًا من خيبة، وهي تظن أنها تختار حريتها. الآن، لا تملك إلا أن تنظر إلى الخلف، وتتمتم في صمت: "لقد خذلتُ نفسي قبل أن يخذلني أحد".

عادت إلى مكتبها، جلست بصمت، كأنها لم تكن.
تنهّدت، وأغمضت عينيها مرة أخرى.

كل شيء أصبح ثقيلاً. العمل، البيت، الأم، الذكريات، الوحدة... وحتى الحب القديم.
لكن شيئاً في داخلها كان لا يزال ينتظر.
ينتظر شيئاً يبرّر هذا الصبر الطويل.

لم تكن متعبة من العمل، بل من هذا الصبر الطويل الذي نَخَر عظامها بصمت. من هذا الثقل اللامرئي الذي يلتصق بروحها ولا يُمحى.

لكنها تعرف، الوحدة لم تكن أصل الجرح. بل هذه العدمية... هذا الفراغ الذي لا يفسّره منطق. كم مرة قيل لها: "عندك كلشي، راجلك، خدمتك، الناس كيبغيوك، شنو خاصك؟" لكنها كانت تدرك أن كل ذلك ليس ما أرادته قط. لا الزوج، لا العمل، لا هذا الدور الذي فُرض عليها باسم النجاح. ما أقسى أن يعيش الإنسان حياةً لا تُشبهه، حياةً صُممت لأحلام شخص آخر، تُخيط على مقاس توقعات الآخرين، بينما الروح تتقلص في الداخل وتختنق.

ربما لم يكن الحب الأول هو الخطأ، ولا الطفولة، ولا حتى الزواج... ربما الخطأ كان فيها. في كونها لا تقدر أن تترك الماضي حيث يجب أن يُترك. في تعلقها بالمألوف، بالبسيط، برائحة الأمس. كانت تخاف الجديد، ترفض التغيير، وتتمسك بما تعرفه حتى وإن كان يُؤلمها.

مرّ اليوم ببطء ثقيل، كأن عقارب الساعة تستمتع بتعذيبها. وحين خرجت من المكتب، لم تكن متحمسة لوجهة، فقط رغبة عارمة في المشي، بلا هدف، بلا أحد.

الدار البيضاء... كانت ملاذها الوحيد في هذه الحياة التي لا تشبهها. لم تكبر هنا، لكنها أحبتها. أحبت هذا الضجيج، هذا الخليط العشوائي من الوجوه، اللهجات، الأرواح التائهة. كانت المدينة تحتضن الجميع، من الهاربين من القرى، من الماضي، من الندم، من الفشل. تعطيهم فسحة حياة، مساحة منسية للبداية من جديد.

تمشي بين الأزقة كأنها تعرفها أكثر مما تعرف جسدها. شارع المقاومة يمر من تحت قدميها بثقل الذكريات، نوافذ المباني القديمة تطلّ عليها كعيون تعبى، شاهدة على آلاف القصص، آلاف الخيبات.

تشم رائحة الحافلات، تختلط بالملح الآتي من البحر، وعرق الأجساد المرهقة. ترى فتاة صغيرة تبيع الورد، عجوزًا يحدّق في الأرض، شابًا ينفث سيجارته نحو الغروب... وتدرك أن الجميع مثقل، أن لا أحد يعيش هنا دون ثمن.
واصلت السير في شوارع البيضاء كأنها تهرب من نفسها. في كل خطوة، كانت تحاول دفن صوت داخلي يصرخ فيها بالعودة، بالسكوت، بالاستسلام. كانت الشمس تميل نحو الغروب، لونها برتقالي باهت كأن السماء تشاركها الحزن.

وبينما تمرّ أمام عمارة قديمة بجانب "ساحة الأمم المتحدة"، لمحت لافتة صغيرة مكتوبة بخط قديم:
"عيادة طب نفسي – الطابق الثاني"

توقفت. شيء ما في داخلها ارتجف. ربما لأن هذه الجملة كانت تهمس لها منذ سنين لكنها كانت ترفض الإنصات.

نظرت إلى الباب الحديدي للعمارة، ثم إلى السلم المعتم خلفه. تنفّست بعمق، واستدارت تمشي... لكنها لم تستطع.
وقفت مرة أخرى، تحدّق في تلك اللافتة، كأنها تتحدى عقلها. هل وصلتُ إلى هذا الحد؟ هل أنا فعلاً تائهة إلى هذا الحد؟
رفعت رأسها، وسحبت نفسًا عميقًا كمن يستعدّ للغرق، ودخلت.

رائحة الرطوبة القديمة، جدران متآكلة، وأصوات خطوات مكتومة في الأعلى. كان كل شيء فيها يريد أن يهرب. كل درجة في السلم كانت ثقيلة، تُذكّرها بكل الأسباب التي دفعتها لرفض العلاج النفسي منذ سنوات.

"ماشي حشومة نمشي لطبيب نفساني؟ شنو غيقول عليا الناس؟"
لكن لم يكن أحد يعلم، ولم يكن أحد معها. كانت وحدها، تحمل ماضيها، وجعها، ودرجة درجة، تصعد نحوه.
حين وصلت إلى الطابق الثاني، وجدت بابًا خشبيًا صغيرًا، عليه لافتة باسم العيادة. وقفت أمامه لثوانٍ، تنظر إلى الخشب كأنه سيحكم عليها.
فتحت الباب أخيرًا، لتجد نفسها في قاعة انتظار ضيقة، هادئة، فيها كرسيان وطاولة صغيرة عليها مجلات قديمة.
وراء المكتب، جلست سكرتيرة خمسينية بنظارات سميكة، رفعت عينيها نحوها وسألت، دون ابتسامة:
. "عندك موعد؟"
ترددت، ثم ردّت بصوت خافت:
. "لا... كنت غير دايزة... وش ممكن نشوف الدكتور؟"
نظرت السكرتيرة إليها بنظرة فيها خليط من الملل والحكم، ثم أشارت إلى الكرسي:
. "تفضلي، كاين وقت... ولكن غير جلسة أولى، باش يشوف حالتك".
جلست، يداها متعرقتان، قلبها ينبض بسرعة غريبة. لم تكن خائفة من الطبيب، بل من نفسها. من أن تبدأ بالكلام، وتنهار. من أن تنكشف. من أن تكون ضعيفة، أو أسوأ: أن تعترف أنها كانت دائمًا كذلك.
فتح الباب بعد دقائق، وظهر رجل في أواخر الخمسينات، بملامح هادئة، وشعر رمادي. نظر إليها بنظرة لم تحمل لا شفقة ولا فضول. فقط هدوء غريب، كأن عينيه تقولان: "أنا هنا فقط للاستماع".
قال بلطف:
. "تفضلي، مرحبًا بك".
قامت بتردد، مشت نحوه بخطى مترددة كأنها تمشي نحو مرآة لا مفرّ منها. دخلت، جلست على الكنبة الرمادية، تنظر إلى الأرض.
قال الطبيب:
. "خدي وقتك"
رفعت عينيها ببطء، وقالت بصوت مبحوح:
. "أنا ماشي مريضة... ولكن ماشي بخير.
وساد الصمت، كأن المدينة كلها توقفت لتستمع معها.

"أنا ماشي مريضة... ولكن ماشي بخير".
قالتها وهي تنظر إلى الأرض، كأنها تخشى من وزن الكلمات أكثر من معناها. لم تكن هذه اعترافًا، بل محاولة للدفاع عن ما تبقّى منها. الطبيب لم يرد مباشرة. فقط حرّك رأسه بحركة صغيرة، سريعة، دون ضجيج، دون تحليل.
كانت الغرفة ساكنة، أكثر مما توقعت. كأن الصمت فيها مدروس. الضوء الداخل من نافذة جانبية خافت، يمر عبر ستارة بلون الكريمة الباهت. رائحة خفيفة من الخشب القديم والمسك المائي. الكتب مصطفّة بدقة خلف مكتبه، بعضها بجلدٍ داكن، بعضها بعناوين فرنسية، وآخر بالعربية الكلاسيكية. لا لوحات فلسفية على الجدران، لا اقتباسات تحفيزية، فقط ساعة نحاسية دائرية لا تُصدر أي صوت.

جلست على الأريكة الرمادية المتوسطة العمق، تظاهرت بأنها مرتاحة. في الحقيقة، ظهرها مشدود، ويدها اليمنى تمسك بداخل كمّها الأيسر، كمن يعاقب نفسه بهدوء. كانت تتفادى عينيه، وتنظر إلى كل شيء آخر: الزر المكسور في طرف الوسادة، خيوط السجادة المتآكلة، الكوب الفارغ بجانب ساعته الصغيرة.

أما الطبيب، فجلس على كرسي جلدي بسيط. وجهه خمسيني، لكن مُتعب بشكل جميل. ملامحه لا تحكم، لا تبتسم كثيرًا، ولكنها تُصغي بنبل. لديه ذلك النوع من الرجال الذين يحملون ماضيًا صامتًا لا يتحدثون عنه، ولكنك تشعر به في نبرة صوتهم، في انحناءة الكتف الطفيفة.

سألها أخيرًا، دون استعجال:

. "إيلا ماشي مريضة... آش اللي خلاك تجي عندي اليوم؟"

سؤال بسيط، لكنها أحسّت به يخترق صدراً مغلقاً منذ سنوات.

أجابت بعد صمت طويل:

. "ما بقيت كنحس بوالو".

قالتها ببرود، ثم أضافت:

. "كنضحك مع الناس، كنخدم، كنسمع الأغاني... ولكن الداخل؟ خاوي".

شعرت بالخجل فورًا. ليست من النوع الذي يُفصح عن نفسه. أصلاً، لم تكن تعرف من هي تمامًا. كل شيء في داخلها صار طبقات من التكرار، من الإنكار، من أدوار فرضتها الحياة.

قال الطبيب بهدوء، دون استعطاف:

. "ممكن تعاودي ليل على نهار عادي فحياتك؟ بلا ما تعمقي... غير كيفاش كيدوز؟"

استفزها الطلب، لأنها شعرت أنه سخيف. ماذا قد يعني "يومي العادي"؟ لكنه لم يلح، فاسترسلت رغمًا عنها:

. "كنفيق... ماكنبغيش نفيق، ولكن كنفيق. كنشرب القهوة وأنا كنخبي عيني فالمرايا، باش ما نشوفش شحال تبدلات ملامحي. كنلبس، كنمشي نخدم... كنخدم كآلة. كنردّ، كنوقّع، كنبتسم... وكنرجع. وفاش كنرجع؟ كنتفرج فالتلفازة، أو كنخرج نتمشى باش مانفكرش بزاف".

توقفت، ثم همست:

. "أو كنتفكر بزاف، بزاف".

أحست بغصة تقترب، لكنها لم تكن دموعًا. بل شيء أخطر: الفراغ.

الطبيب لاحظ ذلك. لم يتدخل. فقط كتب شيئًا على دفتره، ثم سأل:

. "منين جا الفراغ هذا؟ كاين شي لحظة معينة؟ ولا تدريجي؟"

لم تجب فورًا. الكلمات كانت ثقيلة، تحتاج أن تُستخرج من أماكن باردة جدًا. قالت بعد برهة:

. "يمكن... ملي فقدت شي حد. أو... ملي ماقدرتش نحكي على كيفاش فقدتو".

ارتبكت. لم تكن تنوي الخوض في الأمر بهذه السرعة. بدأت تتراجع:

. "ماشي مهم دابا"...

لكن الطبيب قال، بنبرة خفيفة مليئة بالاحترام:

. "كلشي مهم... ولكن على خاطرك، نرجعو منين بغيتي".

هي لم تكن معتادة على ذلك النوع من الردود. لم تُجبر، لم تُنتقد، لم تُقاطع. وهذا بالضبط ما بدأ يُحرك بداخلها شيئًا خامدًا منذ سنوات.

تعودت الاحكام و الصراعات، المشاكل و الصراخ و لكنها لم تتعود ... الاستماع اللامشروط
أحست بدفء غريب يمر من رقبتها إلى صدرها، كأن شيئًا تفتّح بعد شتاء طويل. لم تتكلم مجددًا لبقية الجلسة، فقط جلست هناك، تتنفس ببطء، بينما الساعة تدور.
" -شنو اكثر حاجة كتخليك تعيشي هكا ؟"

حسّت بدفء غريب يمرّ من رقبتها إلى صدرها، كأن شيئًا تفتّح بعد شتاء طويل. لم تتكلّم مجددًا لبقية الجلسة، فقط جلست هناك، تتنفس ببطء، بينما الساعة تدور.
كان الطبيب يتأملها، لا يستعجل الإجابة، ثم فجأة، قطع الصمت بصوته المنخفض:
" —شنو أكثر حاجة كتخليك تعيشي هكا؟"
سؤال بسيط، لكنه نزل عليها بثقل سؤال عن وجودها نفسه. أرادت أن تجيب، لكنها لم تكن تعرف. فكّرت في الخوف، في الخجل، في الذكرى، في الخيانة، في الوحدة... لكن لا إجابة جاءت واضحة. فقط نظرت إليه، ثم إلى الأرض، وأجابت بصوت خافت:
" —مكنعرفش... بحال إيلا ولّيت كنعيش غير باش ندوز نهار آخر، بلا سبب".
أومأ مرة أخرى. لم يعقّب، لم يُنكر عليها شعورها، فقط كتب شيئًا آخر في دفتره، ثم نظر إلى ساعته الصغيرة على الطاولة الجانبية.
" —غادي نوقفو هنا لليوم... مازال عندنا بزاف نحكيو فيه، وخاصنا ناخدو الوقت ديالنا".
أومأت بهدوء، وقفت، وشكرته دون أن تنظر في عينيه. في الخارج، كان الجو قد تغيّر. هواء البيضاء المسائي يعبث بخصلات شعرها، وتحت أقدامها، الأرصفة الرمادية بدت أقل قسوة. لم تشعر بالراحة، لكن شعورًا خفيفًا، كريح دافئة في ليلة باردة، راودها فجأة. لم تكن سعيدة، لكنها لم تكن منهكة كما اعتادت.
قررت أن تكافئ نفسها بشيء بسيط، شيء نسيته منذ زمن. دخلت مقهى قديمًا على ناصية شارع محمد الخامس، طلبت وجبة كاملة، جلست تأكلها دون استعجال، كما لو أنها تفكّر بجسدها لأول مرة منذ أشهر.
ولأنّ المدينة لا تُخفي شيئًا، كان هناك عيون تراقبها دون أن تدري.
--
من ركنٍ بعيد في الحانة، أجلس كعادتي... كأس في يدي اليسرى، وسيجارة تحترق ببطء بين أصابعي. لم أعد أعدّ عدد الكؤوس. لم أعد أذكر لماذا بدأت أشرب أصلًا. كل ما أعرفه أن هذه المدينة – البيضاء – لها طريقة غريبة في امتصاص الحنين من صدرك دون أن تُرجعه أملًا أو حتى نسيانًا.
هي تجلس هناك...
في نفس الطاولة كل مرة. لا تغيّر مقعدها. لا تغيّر مزاجها. وكأنها اختارت أن تنتمي للصمت.
امرأة لا تُشبه أحدًا. لا تقول شيئًا، ولا تطلب شيئًا أكثر من كأس واحد، وربما سيجارة أو اثنتين. وجهها هادئ، لكن عينيها... شيء في عينيها يُربكني. كأنها تُخبئ عاصفة، كأنها تصرخ من الداخل منذ سنوات ولم يسمعها أحد.
أنا لا أعرف اسمها، ولا أريد. لا أنوي الحديث معها. لم أعد من النوع الذي يتقدّم أو يُبادر. لم أعد أصدق أن للحديث جدوى.

أنا رجل خسر معاركه مع الحب منذ زمن. عدت من الغربة منذ خمس سنوات، ولا شيء ينتظرني هنا سوى ذكريات رجل آخر كنتُه ذات يوم. لا زوجة، لا أبناء، لا أهل، لا بيت. فقط شقة فارغة مليئة بشهادات قديمة، وجدران صامتة. كنتُ أحمل آمالًا كبيرة، واليوم أحمل صدري المتعب وسلسلة مفاتيح لا تفتح إلا بابًا واحدًا: الوحدة.

حين أراها، لا أشتهيها. ولا أحنّ إليها. بل أراها كما يرى المتصوّف الجمال في المدى. شيء بعيد، نظيف رغم الطين، لا يُلمس. فيها ملامح تشبه وجوه الحالمين الذين ضلّوا الطريق، ولسببٍ ما، نجوا بجزءٍ منهم.

ربما أحببتها دون أن أدري. أو ربما أحببت فيها الفكرة فقط. فكرة أن هناك شخصًا آخر... حزين مثلي، تائه مثلي، حيّ رغم موته الداخلي.
هي لا تعرفني، ولن تعرفني. وأنا لن أقترب.
لكنني أكتفي بالنظر، وأشرب... كما لو أني أنقذ نفسي من الغرق بالفرجة على من غرق قبلي وما زال يطفو.

على أنغام "أنت عمري" المتذبذبة من الغرفة المجاورة، كان هو مستلقيًا على الأريكة في الشرفة، نصف وجهه غارق في الظل، والنصف الآخر يضيئه شعاع شمس خفيف. رغم امتلاكه لهاتف حديث وحاسوب محمول، لا يزال يفضل مذياعه القديم، الذي تصدر منه أصوات مشوشة لأغنيات أُم كلثوم كأنها تأتي من زمن بعيد، زمن لم يكن فيه هذا الصمت الداخلي ينهش قلبه.
كانت "أنت عمري" أكثر من أغنية. كانت نشيد المحبين، و التائهين، والمنسيين، والمجروحين، وأولئك الذين لا يجدون وصفًا لما يشعرون به سوى النغمة. من الناس من لا يفهم الكلمات، لكنه يبكي مع اللحن. وهو ليس منهم بل هو من الذين تركهم قطار الحياة، اشعلوا سجارة و شاهدوه يختفي دون ان يودعوه .
بين أكواب قهوة باردة، وزجاجات كحول نصف فارغة، جلس يراقب الشارع شبه المزدحم من شرفته، لا ينتظر شيئًا، لا يطمح لشيء. الوقت مر عليه كدخان السجائر: كثيف، مؤذٍ، ويزول سريعًا دون أن يترك شيئًا سوى رائحة تعب.
في الأسفل، تمرُّ هي.
عيناها غارقتان في الأرض. خطواتها ليست سريعة ولا بطيئة، كأنها تمشي لتنجو، لا لتصل. لمحها للحظة، لم تكن طويلة، لكنها تركت أثرًا. كلما مرّت، كانت تسرق من وحدته لحظة حيرة. ما قصتها؟ لماذا لا تنظر أبدًا لأعلى؟
كان يعرفها فقط من ملامحها المتكررة، لا من اسمها. امرأة تُشبه الدار البيضاء: متعبة، أنيقة رغم الخدوش، وداخليًا منهارة.
هي من جهتها كانت قد خرجت للتو من المصعد، حاملة كيس خبز وعلبة حليب رخيصة، في طقس ليس حارًا ولا باردًا. عيناها جافتان، لا أثر للنوم فيهما. لم تنم جيدًا، كعادتها. لكنها اليوم شعرت بحاجة للمشي، للابتعاد عن رائحة المكتب والبيت.
كان صوتًا لطف فتاة صغيرة، في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، ذات شعر كستنائي مجعد وعينين واسعتين فيهما فضول العالم كله. كانت ترتدي كنزة زهرية باهتة وسروالاً منزلياً، وتحمل بين يديها كوبًا بلاستيكيًا مكسور الحافة.
"ماما قالت واش عندك شوية زيت، راه سالينا".
نظرت إليها للحظة طويلة، قبل أن ترد بابتسامة خفيفة، غائبة بعض الشيء. ثم دخلت المطبخ وقدّمت لها الزجاجة.
"شكراً خالتي".

"شنو سميتك؟"
"رُقيّة".
"سمية زوينة"...

ذهبت رقيّة بسرعة بعد ذلك، لكن مشيتها كانت خفيفة كمن يرقص في خياله. بقيت تنظر خلفها، وكأنها أرادت قول شيء ولم تقدر.
رجعت إلى شقتها، وأغلقت الباب ببطء. جلست على الأرض قرب النافذة، ونظرت إلى المدينة. رأت في تلك الطفلة نفسها، بكل ما لم يتحقق. بكل ما قيل لها إنه ممكن، ثم سُحب منها في صمت. ليس غيرة، لا. بل حزنٌ نبيل. حزن على كل ما كانت تستطيع أن تكونه، ولم تصبحه.
تذكرت أحلامها القديمة: الكتابة، السفر، التمثيل، الحب، الحنان. أشياء لم تطلبها من أحد، فقط من القدر.
..
في المساء، جلس هو في المقهى الذي يرتاده منذ سنوات. يعرف النادل، ويعرف الوجوه التي تأتي وتذهب. لكنه لا يعرف أسماءهم. لا حاجة لذلك. المقهى مثل المسرح، كل شخص فيه يؤدي دورًا، وهو متفرّج لا يصفّق.
طلب قهوة سوداء دون سكر، وسحب دفتر ملاحظات قديم. لا يكتب فيه شيئًا. فقط يفتحه، ينظر إليه، ثم يغلقه مجددًا. كأن هناك قصة عالقة في حلقه. دخّن سيجارته الأولى ببطء، ثم الثانية بنهم، كأنها آخر لحظة تأمل.
جلس وحيدًا في الطاولة الخلفية، تلك التي تطل على الشارع وتخفيه قليلاً. المقهى كان يعجّ بالضجيج، لكن داخله، كان الصمت سيد اللحظة. نظر إلى الزجاج فشاهد انعكاسه: رجل لا يزال في مكانه، لكن الزمن تجاوزه.
في الزاوية الأخرى، دخلت هي. لم تره. لم تكن حتى تنظر حولها. طلبت كأس ماء وجلست. لا هاتف، لا كتاب. فقط جلوسها.
كانت تضع وشاحًا رماديًا على كتفيها، وشعرها مربوط على عجل، كأنها كانت تود البقاء في البيت لكنها خرجت على مضض. عيناها كانتا تبحثان عن شيء غير موجود، شيء ربما دفن في الزمن.
تابعها بعينين ثابتتين. في داخله، شيء يتحرك ببطء. ليس حبًا، بل شيء يشبه التوق. توق لفهم، لرغبة في ربط خيوط الحكاية. لم يكن ينوي الاقتراب منها، لكنه أحس كأنها قطعة موسيقى يعرفها ولم يسمعها منذ سنوات.
الى ان جاءه هاتف جعله يركض للعمل مجددا على امل يلتقيا مجددا ولو صدفة .
...
في الليل، كلٌ منهما في شقته. هو يدخّن سيجارته الأخيرة، ويعيد تشغيل المذياع. هي تشرب كوب حليب بارد وتفكر في المراهقة . في جارها القديم. في الرجل في المقهى الذي لم تلاحظ.

كأن الحياة كلها تدور في دائرة صغيرة، وكل شخص فيها يمر بجانب الآخر دون أن يعرف إلى أي حد قد يكون هو مرآته.
وفي السماء، فوق المدينة النائمة، لا شيء يُسمع سوى همسات الذكريات.
وفي السماء، فوق المدينة النائمة، لا يُسمع سوى همسات الذكريات.
الحياة، في حقيقتها، دائرة صغيرة. ونحن فيها كالفئران... فئران تجارب تدور في عجلة وُجدت لتعيد تكرار أخطاء الماضي، وتغرق في الذكريات. ومن نجا من إحداهما، ابتلعه الآخر. أمّا من غرق في نعيم الجهل، فقد سلِم مؤقتًا... لكنه سلامٌ أعمى.

هي كانت غارقة وسط أحلامها الدافئة، تلك التي تخبئها في دفاتر صفراء مهترئة، كل ورقة منها تفوح برائحة سنين ضاعت ولم تمت. وهو... كان يشعل سيجارته الثلاثين هذا اليوم، يتابع احتراقها كما لو كان يراقب نفسه وهي تفنى ببطء. حتى طعم الخمر المر لم يعد لذيذًا كما كان في البدايات؛ صار يشربه كما يؤدي عملًا روتينيًا مملًا، كأسًا بعد كأس، عله يصل إلى تلك الدرجة التي يمحو فيها كل شيء من رأسه... ولو مؤقتًا.

يتأرجح بين سريره وشرفته، وأحيانًا يصعد إلى السطح هربًا من أفكاره، أفكارٌ لاحقته لسنوات كما يلاحق ظلٌ صاحبه عند المغيب.

ولربما، عزيزي القارئ، تتساءل الآن: كيف يمكن لأحدهم أن يظل عالقًا في نفس الدائرة لسنوات، ونحن نعيش في زمن السرعة والتطور؟ لكن الحقيقة أن هذه قصة قديمة، بقدم الإنسان نفسه. منذ أن وُجد، وهو يبحث عن مكان ينتمي إليه، وعن إجابة لسؤال: "أين أنا وسط كل هذا الضجيج؟"

كلما اندمج بين الناس، زادت حيرته. لا يجد نفسه في أحضان ولا في مجالس، والأغرب أن البعض يموت دون أن يجد حضنًا واحدًا يحتويه.

نحن في زمن يسهل فيه العثور على أي معلومة، لكن يصعب العثور على أنفسنا. الجميع يعرف الجميع، والجميع غريب عن الجميع. تستطيع أن تبحث في أي محرّك بحث عن أي اسم، لكن... أي اسم؟ أي عنوان؟ أي طريق يقودك لما تبحث عنه حقًا؟

فنغرق في الملهيات، فقط لنهرب من نقطة الصفر، حتى نجد أنفسنا... في نفس نقطة الصفر.

كانت هي، في غرفتها، تستنجد بصمت لتجد نفسها، وهي على بعد أمتار معدودة من رجلٍ لا يبحث عنها، لكنه في أمس الحاجة لمن ينقذه. وهذه، يا قارئي العزيز، سخرية الحياة: ليس هناك خيطٌ سحري يربط الأرواح التائهة.

الحياة غالبًا لا تشبه قصص المراهقة المليئة بالإثارة والرومانسية، بل تمتلئ بكؤوس مرّة من الملل والتكرار. مهما لمعَت ألوان الرأسمالية على شاشات التواصل الاجتماعي واحتفت بـ"الفائزين"، هناك ملايين، إن لم يكن مليارات، يغرقون في جرعات من التعاسة اليومية، نسميها... الروتين.

هل السعادة الحقيقية تُعاش بعيدًا عن العدسات، أم أن العدسات تلاحقنا أينما ذهبنا لتذكّرنا بزيف مشاعرنا؟ هل نحن أحياء حقًا... أم أننا نحيا في جحيم بارد، جحيم لا يحرق الجسد بل ينهش الروح؟ ربما النيران التي وُعِدنا بها كانت داخلنا منذ البداية.

ولو كانت هذه النيران تلسع ظهورنا، لربما عرفنا أين نبحث عن النجاة. لكن الآن، لا نعرف: هل سينقذنا شخص؟ رقم في حسابنا البنكي؟ وطن آخر؟ هدف جديد نضعه على قائمة "أعمال الإثنين"؟

تبا لهذه الحياة... وتبا لعالم صاخب بهدوئه، يقتل أرواحنا ونحن ما زلنا نتنفس.

وأصعب جحيم بعد الموت، أن يُفرض علينا إعادة كل شيء من الصفر... بذاكرة ممحية. ذلك هو العذاب الأكبر.

لكن العاصفة هذه الليلة كانت مختلفة.

هو كان على الشرفة، سيجارته تتوهج في العتمة، حين لمح من نافذة الجهة المقابلة ظلًا يتحرك. كان يعرف أنها غرفتها، تلك التي لم يُرَ ضوءها منذ أسابيع. فجأة، انفتح الستار قليلًا، وبدا له أنها كانت جالسة قرب النافذة، دفترها مفتوح، رأسها مائل على يدها كمن فقد القدرة على المقاومة.

لم يعرف لماذا، لكن هذه المرة لم يشيح بنظره. شعر بشيء يدفعه إلى البقاء، إلى المراقبة، إلى الانتظار. دخّن ببطء، ثم أطفأ السيجارة، وبدلًا من العودة إلى غرفته، بقي واقفًا، كأنّ جزءًا منه ينتظر أن ترفع رأسها وتنظر.

في تلك اللحظة، في غرفتها، كانت تمزق صفحة من دفترها ببطء. الورقة التي سقطت على الأرض لم تكن فارغة؛ كانت تحمل كلمات... اسمه.